الخليل بن أحمد والقراءات القرآنية

د. التواتي بن التواتي

لقد سبق أن قدمنا في العدد السابق مقالا عن الخليل بن أحمد نحويا منظرا له مكانته في مجال التنظير النحوي بقي أن نتحدث عن علاقته بالقرآن والقراءات فنقول : لقد روي عنه أنّه كان دائم القراءة للقرآن يتدبّر معانيه ويتأمّل آياته وربّما قضى الليل أجمعه في ذلك[1].

وإذا رجعنا إلى كتاب سيبويه نجد فيضا من الشواهد القرآنية التي اعتمدها الخليل ولعلّ نقله عنه منها في أبواب كثيرة منها أكبر شاهد ودليل على صحّة ما ذهبنا إليه .

وكان يُكْثِر من تفسير الآيات القرآنية وتحليلها وتوجيهها توجيها نحويا وكان في معظم ذلك يردّ عن سؤال وجّهه إليه تلميذه سيبويه عن استعمال معيّن أو تعبير خاص وما يختار قولا إلاّ دعّمه بشاهد من القرآن أو كلام العرب ،ولهذا نثبت موقفه من القراءات ،ووجهة نظره لبعضها وتفسيره لها.

1 ـ شرح المقامات الحريرية ، الشريشي ، 212/2

ـ موقفه من بعض القراءات :

لقد وردت في عدد من الآيات قراءات مختلفة تعرّض لها العلماء ، وكانت لهم اتجاهها مواقف معيّنة ، فردّوا بعضا منها ، وقبلوا بعضها الآخر ونريد أن نعرف موقف الخليل بن أحمد من هذه القراءات فلا سبيل لذلك إلاّ نلتمس له أثرا في كتاب سيبويه لأنّه تلميذ الخليل ، وحامل علمه حتى قال الألوسي : وقد أكثر سيبويه في الكتاب من قوله زعم الخليل كذا في أشياء يرتضيها يريد بذلك القول المحقق وقد نقل ذلك جماعات من أهل اللغة وغيرهم ونقله أبو عمر الزاهد في شرح الفصيح عن شيخه أبي العباس ثعلب عن العلماء باللغة من الكوفيين والبصريين [2].

وقال الثعالبي : وإذا قال سيبويه زعم الخليل فإنما يستعملها فيما انفرد الخليل به ، وكان أقوى رتب (زعم) أن تبقى معها عهدة الخبر على المخبر [3].

وقال الألوسي : وأكثر ما يقال فيما يشك فيه ، ومن هنا قيل : إنه قول بلا دليل وقد كثر استعماله بمعنى القول الحق وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : "زعم جبريل" وفي حديث ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه : "زعم رسولك وقد أكثر سيبويه في الكتاب من قوله : زعم الخليل كذا في أشياء يرتضيها.

---

2 ـ روح المعاني ، الألوسي ، 67/5 . 97/15

3 ـ تفسير الثعالبي ، 385/1

وقال : وقد أكثر سيبويه وهو إمام العربية في كتابه من قوله : زعم الخليل وزعم أبو الخطاب يريد بذلك القول المحقق وقد نقل ذلك جماعات من أهل اللغة وغيرهم ونقله أبو عمر الزاهد في شرح الفصيح عن شيخه أبي العباس ثعلب عن العلماء باللغة من الكوفيين والبصريين ..[4]

1 ـ قال سيبويه في باب : ما يجوز فيه الرفع ممّا ينتصب من قولنا : هذا عبد الله منطلق :"زعم الخليل أنّ رفعه على وجهين :

(أ) ـ وجه أنّك حين قلت : هذا عبد الله ، أضمرت (هذا) أو (هو) كأنّك قلت : هذا منطلق أو هو منطلق .

(ب) ـ والوجه الثاني أن تجعلهما جميعا خبرا لـ(هذا)كقولك ، هذا حلو حامض لا تريد أن تنقض الحلاوة ، ولكنّك تزعم أنّه جمع الطعمين.

2 ـ وقال الله عزّ وجلّ (**كَلَّا إِنَّهَا لَظَى(15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى(16)** المعارج/ وزعموا أنّها في قراءة ابن مسعود (هذا بعلي شيخ).[5] والذي نلاحظه من كلام الخليل بن أحمد أنهّ يأخذ بالقراءة مسلّما بها، وحمل عليها في مكان آخر قولهّ عزّ وجلّ **(هذا ما لديّ عتيد)** ق/23 .

4ـ روح المعاني ، الألوسي ، 67/5

5ـ الكتاب ، سيبويه ، 258/1

3ـ وذكر سيبويه في باب (ما ينتصب لأنّه ليس من اسم ما قبله ولا هو هو) قوله تعالى : (**فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**(10)فصلت/ ثمّ أردف وقد قرأ ناس (في أربعة أيّام سواءٍ) قال الخليل : جعله بمنزلة : مستوياتٍ).[6] ففي هذه الآية إذًا قراءتان :

إحداهما : بنصب (سواءً) على الحالية .

والثانية : بخفضها على الصفة عند الخليل أي أنّها نعت لـ(أربعة أيام)وقد قبل الخليل القراءتين جميعا ، وحاول أن يجد للتي وردت بالخفض وجها تُحمل عليه.

4ـ وقال سيبويه : أنّ بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا: (**وامرأتُهُ حَمالةَ الْحَطَبِ**)المسد/4 ولم يعترض الخليل على القراءة بل سلّم بها وعدّ قوله تعالى : (حمالةَ الحطبِ) ممّا انتصب على الشتم [7]

5 ـ وروى الخليل أنّ بعضهم قرأ(**وَمَنْ تَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ ورسوله**)الأحزاب/31 فأنّث الفعل في الصلّة حينما عنى بـ(مَنْ) مؤنّثا ولكنّه لم يعترض على القراءة الأخرى (ومَنْ يَقْنُتْ)التي وردت بتذكير الفعل حملا على لفظ (مَنْ)أو يفضّل إحداهما على الأخرى.[8]

6 ـ وفي قوله تعالى : (**لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**)الأعراف/41 أي إغماء قال أبو إسحاق : زعم الخليل وسيبويه

6ـ الكتاب ، سيبويه ، 275/1

7ـ الكتب ، سيبويه ، 288/1

8ـ الكتاب سيبويه ، 404/1

جميعا أن النون هاهنا عوض من الياء لأن غواش لا ينصرف والأصل فيها غواشي إلا أن الضمة تحذف لثقلها في الياء فإذا ذهبت الضمة أدخلت التنوين عوضا منها قال : وكان سيبويه يذهب إلى أن التنوين عوض من ذهاب حركة الياء والياء سقطت لسكونها وسكون التنوين.[9]

7 ـ **إسناد قراءة النصب** :حدثنا نصر بن علي قال : خبرنا بكار بن عبد الله بن يحيى العوذي عن الخليل بن أحمد قال : سمعت عبد الله بن كثير المكي أنه كان يقرأ (غير المغضوب عليهم)وقال الخليل: وهي جائزة على وجه الصفة للذين أنعم الله عليهم يعني بالصفة القطع من ذكر الذين ويجوز أن يكون نصب غير على الحال وقد قال الأخفش : نصب (غير) على الاستثناء وهذا غلط.[10]

8 ـ ومن ذلك قراءة الأعمش ونافع وحمزة والكسائي **(وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَنُكَفِّرْ عَنْكُمْ)** البقرة/271 بالنون والجزم وقرأ ابن عباس بالتاء الفوقية وفتح الفاء والجزم وقرأ الحسين بن علي الجعفي بالنون ونصب الراء . فمن قرأ بالرفع فهو معطوف على محل الجملة الواقعة جوابا بعد الفاء أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ومن قرأ بالجزم فهو معطوف على الفاء وما بعدها ومن قرأ بالنصب فعلى تقدير (أن).[11]

---

9 ـ معاني القرآن وإعرابه ، أبو إسحاق الزجاج ، 338/2

10 ـ كتاب السبعة في القراءات ، ابن مجاهد ، 112/1 . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 151/1

11 ـ فتح القدير ، الشوكاني ، 290/1

قال ابن مالك : لو قرئ بنصب الراء لكان جائزا في العربية وهي قراءة زائدة عن الأربعة عشر.[12]

وقال سيبويه : والرفع هاهنا الوجه الجيد لأنّ الكلام الذي بعد الفاء جرى مجراه في غير الجزاء فجرى الفعل هنا كما كان يجري في غير الجزاء . وأجاز الجزم بتأويل وإن تخفوها يكن الإخفاء خيرا لكم ويكفر وبمثل قول سيبويه قال الخليل.[13]

وقال أبو علي الفارسي : و(قراءة الجزم)على حمل الكلام على موضع قوله فهو خير لكم لأن قوله فهو خير لكم في موضع جزم.[14]

واستشكله البدر الدماميني بأنه صريح في أن الفاء و ما دخلت عليه في محل جزم وقد تقرر أن الجملة لا تكون ذات محل من الإعراب إلا إذا كانت واقعة موقع المفرد وليس هذا من محال المفرد حتى تكون الجملة واقعة موقع ذات محل من الإعراب ، وذلك لأن جواب الشرط إنما يكون جملة ولا يصح أن يكون مفردا فالموضع للجملة بالأصالة وادعى أن جزم الفعل ليس بالعطف على محل الجملة وإنما هو لكونه مضارعا وقع صدر جملة معطوفة على جملة جواب الشرط الجازم ، وهي لو صدرت بمضارع كان مجزوما فأعطيت الجملة المعطوفة حكم الجملة المعطوفة عليها وهو جزم صدرها إذا كان فعلا مضارعا. . .[15]

---

12 ـ عمدة الحافظ وعدة اللافظ ، ابن مالك ، ص: 249

13 ـ الكتاب ، سيبويه ، 3/90-91

14 ـ زاد المسير ، ابن الجوزي ، 1/326

15 ـ روح المعاني ، الألوسي ، 3/45

9 ـ قال الخليل بن أحمد : وأنا أقرؤها إن شئتم مخففة على الأصل إن (هذان لساحران) أي : ما هذان إلا ساحران قال الشاعر:

غدر ابن جلموز بفارس بـهمـة * عند اللقاء ولم يكن بمعرد

ثكلتك أمك إن قتلت لمسلما * حلت عليك عقوبة المتعمد

أي : ما قتلت إلا مسلما وفي قراءة عائشة رضي الله عنها (إن هذين لساحران) .

10ـ قال سيبويه : سألت الخليل عن **(ليفعلن)** إذا جاءت مبتدأة فقال : هي على نية القسم فكأنك إذا قلت على هذا : لأضربنك فكأنك قلت والله لأضربنك وإذا قلت : لينطلقن زيد فكأنك قلت والله لينطلقن زيد وكذلك قوله عز اسمه **(وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ(88)ص/** أي : والله لتعلمن وإذا كان ذلك كذلك فقوله تعالى **(وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا)**الإسراء/ ليست اللام في لئن بجواب القسم إنما الجواب لنذهبن وعليه وقع الحلف واللام في لئن إنما هي زائدة مؤكدة يدلك على أن اللام الأولى زائدة وأن اللام الثانية هي التي تلقت القسم جواز سقوط الأولى في نحو قول الشاعر قرأته على أبي علي في نوادر أبي زيد لقيس بن جروة الطائي جاهلي :

فأقسمت لا أحتـل إلا بصهـوة * حـرام علي رمله وشقـائقه

فإن لم تغير بعض ما قد صنعتم * لأنتحين للعظم ذو أنا عارقه

ولم يقل فلئن لم تغير فهذا نظير قوله عز اسمه : (وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا) أي والله إن لم ينتهوا ليمسن وقد شبه بعضهم إذ بـ(إن) فأولاها اللام.[16]

11ـ وقد حكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول : (لا أدر) فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة ويزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . فكان قول الخليل وسيبويه تعليلا لمن حذف الياء في قراءة من قرأ قوله تعالى : (يوم يأت) بها قرأ عاصم وابن عامر وحمزة بغير ياء في الوصل والوقف .

قال الزجاج :الذي يختاره النحويون **(يوم يأتي)** بإثبات الياء والذي في المصحف وعليه أكثر القراءات بكسر التاء وهذيل تستعمل حذف هذه الياءات كثيرا .[17]

(ب) ـ أجوبته عن مسائل في القراءات : وقد وجّه إليه سيبويه عدّة أسئلة تتعلّق بقضايا نحوية لها علاقة بالقراءات فأجابها عنها بدون أن يعترض عن القراءة الأخرى نذكر منها مسألتين :

(أ) ـ سأل سيبويه الخليل بن أحمد عن قوله تعالى : **(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ، فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ)** الشورى/51 ، فقال: إنّ (يرسل) منصوب بـ(أن) مضمرة ، وليس العطف على (أن يكلّمه) ؛ لأنّ المعنى يصبح فاسدا حينذاك .

---

16 ـ سر صناعة الإعراب ، ابن جني ، 396/1

17 ـ زاد المسير ، ابن الجوزي ، 158/4

والداعي إلى الإضمار أنّ(يرسل) معطوف على (وحيا) كما يقتضي المعنى الصحيح ولمّا كان (يرسل)فعلا و(وحيا) اسماً أُضمرت (أن) ليسوغ عطف الفعل على الاسم . وأهل المدينة يقرأون (أو يرسلُ) بالرفع على الاستئناف، ولكن الخليل لم يعترض على قراءتهم.[18]

(ب) - وسأله سيبويه عن قراءة (فاصّدّق وأَكُنْ من الصَّالِحِين) بجزم (أكن) وكان تفسيره أنّ (أكن) عطف على محلّ الفعل الذي قبله على توهّم جزمه لأنّه قد يكون في هذا الموضع مجزوما ولا فاء فيه . ولكنّه لم يعترض على قراءة من قرأ (وأكونَ) بالعطف على ما بعد الفاء.[19]

(ج)- قال سيبويه : وسألته (أي : الخليل) عن قوله تعالى : (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا(68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(69)الفرقان/فقال هذا الأول لأنّ مضاعفة العذاب هو لُقِيُّ الآثام . ومثل ذلك من الكلام : إن تأتينا نحسن إليك نعطك ونحملْكَ ، تفسر الإحسان بشيء هو ؛ وتجعل الآخر بدلا من الأول.[20]

---

18 ـ الكتاب ، سيبويه ، 429/1

19 ـ الكتاب ، سيبويه ، 452/1

20 ـ الكتاب ، سيبويه ، 87/3

ـ توجيهه لبعض القراءات :

1ـ وكان الخليل بن أحمد يفسّر همزة أنّ في قراءة من قرأ **(وأَنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة وأنا ربّكم فاتّقون)**المؤمنون/52 على تقدير حذف اللام ، كأنّه قال : ولأنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة . وقال نظيرها : **(لإيلَافِ قُرَيْشٍ**(1) لأنّه هو لذلك **(فَلْيَعْبُدُوا)** فإن حذفت اللام من أن فهو نصب كما أنّك لو حذفت اللام من لإيلاف كان نصبا . وهي عند سيبويه متعلقة بقوله (فاتقون) وتقدير : فاتقون لأن أمتكم واحدة وهذا كقوله تعالى : **(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)**(18)الجن/ أي : لأن المساجد لله فلا تدعوا معه غيره .

أمّا القراءة الأخرى التي وردت بكسرها ووصفها سيبويه بأنّها جيّدة فلم يتعرض لها الخليل وقال عنها سيبويه : ولو قرءوها **(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي**(52) [21] كان جيدا وقد قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي ، (وإن) بكسر الهمزة على الاستئناف أو عطفا على الآية السابقة **(إِنِّي بِمَا تَعْلَمُونَ عَلِيمٌ)**.[22]والظاهر أنّه يراها جيّدة مثل تلميذه ولو كان له فيها رأي لذكره سيبويه .

2 ـ ذكر سيبويه أنّه سأل الخليل عن قوله تعالى **(وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**(82)القصص/ وعن قوله تعالى : **(وَيْكَأَنَّ اللَّهَ)** فزعم أنّ (وي)

21ـ الكتاب ، سيبويه ، 1/126 ـ 127

22ـ الكتاب ، سيبويه ، 1/127 إتحاف فضلاء البشر ، الدمياطي ، ص : 312

مفصولة من كأن وأن القوم تنبهوا فقالوا (وي) متندمين على ما سلف منهم وكل من تندم أو ندم فإظهار ندامته أو تندمه أن يقول (وي) كما تعاتب الرجل على ما سلف فتقول : كأنك قصدت مكروهي فحقيقة الوقوف عليها (وي) هو أجود وفي كلام العرب (وي) معناه التنبيه والتندم . قال : وتفسير الخليل رحمه الله مشاكل لما جاء في التفسير لأن قول المفسرين أما ترى هو تنبيه.[23]

وذكر الفراء في كتابه قول الخليل وقال : (وي كأن) مفصولة كقولك للرجل (وي أما ترى ما بين يديك) فقال : وي ثم استأنف كأن الله يبسط الرزق وهو تعجب وكأن في المعنى الظن والعلم .

وقال : وهذا وجه يستقيم ولو تكتبها العرب منفصلة ، ويجوز أن يكون كثر بها الكلام فوصلت بما ليس منه كما اجتمعت العرب على كتاب(يا بنؤم) فوصلوها لكثرتها وقال : وكذا رأيتها في مصحف عبد الله وهي في مصحفنا.[24]

قال ابن جني : ذهب الخليل وسيبويه فيه إلى أنه (وي) مفصول وهو اسم سمي به الفعل في الخبر وهو معنى أعجب ثم قال : مبتدئا كأنه لا يفلح الكافرون وأنشدوا[25] فيه :

---

23 ـ الكتاب ، سيبويه ، 154/2

24 ـ معاني القرآن ، الفراء ، 321/2 ـ313

25 ـ معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج ، 157/4 البيتان في (الكتاب ، 154/2) لزيد عمرو بن نفيل يتحدث عن زوجين له فركتاه لقلة ماله فقال :

تلك عرساي تنطقان على العمد إلـــى اليـوم قـول زور وهـتـر

سألتاني الطَّلاَقَ إِذْ رَأَتَانِي قَلَّ مَالِي قَدْ جِئْتُمَا فِي بنكر

وَيْ كأنْ مَنْ يكن نشب يحـبَبْ ومَنْ يفتقرْ يعش عَيْشَ ضُرّ

وذهب أبو الحسن الأخفش الأوسط فيه إلى أنه : "ويك أنه لا يفلح الكافرون" أراد (ويك) أي : أعجب أنه لا يفلح الكافرون أي أعجب لسوء اختيارهم ونحو ذلك فعلق أن بما في (ويك) من معنى الفعل وجعل الكاف حرف خطاب بمنزلة كاف ذلك وهنالك.

قال أبو علي منتصرا لقول سيبويه : قد جاءت (كأن) كالزائدة وأنشد بيت عمر :

كأنني حين أمسي لا تكلمني ذو (بغية يشتهي ما ليس موجودا

أي: أنا كذلك وكذلك قول الله تعالى **(وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)** أي هم لا يفلحون . وقال الكسائي : أراد ويلك ثم حذف اللام.[26]

وقد أسند الإمام الطبري ما ذكره سيبويه للمفسرين إلى قتادة بأكثر من سند قارنا له بأخذ بعض أهل العربية به ، وهو سيبويه لأنّه من البصرة ولسوقه شاهده السالف فقال : وتأول هذا التأويل الذي ذكرناه عن قتادة في ذلك أيضا بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة واستشهد لصحة تأويله ذلك كذلك بقول الشاعر السالف.

وقال بعض نحويي الكوفة : ويكأن في كلام العرب تقرير كقول الرجل أما ترى إلى صنع الله وإحسانه وذكر أنه أخبره من سمع أعرابية

26 ـ الخصائص ، ابن جني ، 3/169ـ170

تقول لزوجها أين ابننا فقال : "ويكأنه وراء البيت" معناه أما ترينه وراء البيت.

قال : وقد يذهب بها بعض النحويين إلى أنها كلمتان يريد (ويك) أنه كأنه أراد (ويلك) فحذف اللام فتجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم أنه وراء البيت فأضمر اعلم .

قال : ولم نجد العرب تعمل الظن مضمرا ولا العلم وأشباهه في أن وذلك أنه يبطل إذا كان بين الكلمتين أو في آخر الكلمة فلما أضمر جرى مجرى المتأخر ألا ترى أنه لا يجوز في الابتداء أن يقول يا هذا أنك قائم ويا هذا أن قمت يريد علمت أو اعلم أو ظننت أو أظن . وأما حذف اللام من قولك (ويلك) حتى تصير ويك فقد تقوله العرب لكثرتها في الكلام قال عنترة :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها * قول الفوارس ويك عنتر أقدم

قال : وقال آخرون : إن معنى قوله ويكأن وي منفصلة من كأن كقولك للرجل وي أما ترى ما بين يديك فقال : (وي) ثم استأنف كأن الله يبسط الرزق وهي تعجب وكأن في معنى الظن والعلم فهذا وجه يستقيم قال : ولم تكتبها العرب منفصلة ولو كانت على هذا لكتبوها منفصلة وقد يجوز أن تكون كثر بها الكلام فوصلت بما ليست منه .

وقال آخر منهم : إن (وي) تنبيه وكأن حرف آخر غيره بمعنى لعل الأمر كذا وأظن الأمر كذا لأن كأن بمنزلة أظن وأحسب وأعلم .

الترجيح : وأولى الأقوال في ذلك بالصحة القول الذي ذكرنا عن قتادة من أن معناه ألم تر ألم تعلم للشاهد الذي ذكرنا فيه من قول الشاعر والرواية عن العرب وأن ويكأن في خط المصحف حرف واحد ومتى وجه ذلك إلى غير التأويل الذي ذكرنا عن قتادة فإنه يصير حرفين وذلك أنه إن وجه إلى قول من تأوله بمعنى ويلك اعلم أن الله وجب أن يفصل (ويك) من أن وذلك خلاف خط جميع المصاحف مع فساده في العربية لما ذكرنا وإن وجه إلى قول من يقول (وي) بمعنى التنبيه ثم استأنف الكلام بكأن وجب أن يفصل وي من كأن وذلك أيضا خلاف خطوط المصاحف كلها فإذا كان ذلك حرفا واحدا فالصواب من التأويل ما قاله قتادة .[27]

ومن هذه القراءات التي أثبناها -كان للخليل فيها رأيٌ- نستشفّ أنّ موقفه مخالف لما نسب إليه من تخطئة بعض القراءات وردّها والذي نلمسه من خلال ما ذكرنا أنّ الرجل له احترام للقراءات وإن لم يأخذ ببعضها فإنّه لا ينكرها ولا يخطّئها.

3 ـ **(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ)** النحل /63 فأنّ جرم عملت فيها لأنّها فعل ، ومعناها : لقد استحق أنّ لهم النار وقول المفسرين : معناها : حقّا أنّ لهم النار يدلّك أنّها بمنزلة هذا الفعل إذا مثّلت فجرم بعد عملت في أنّ عملها في قول الفزاريّ :

ولقد طعنتَ أبا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً * جَرَمتْ فَزَارةَ بَعدها أَنْ يَغْضَبُوا

27 ـ تفسير الطبري ، 120/20 ـ 121

أي : أحقت فزارة .وزعم الخليل أنّ لا جرم إنما تكون جوابا لما قبلها من الكلام . . . فتقول : لا جرم أنّهم ستندمون أو سيكون كذا وكذا .[28]

قال د/ إبراهيم رفيدة: ومفهوم كلامه أنّ فزارة في البيت منصوب لأنّه فسر جرم بـ"أحقت" المتعدي بالهمزة ، وقد شكلت (فزارة) في الكتاب بالنصب وكذلك فسره الأعلم بـ(حق) المتعدي فقال : ومعناه على مذهب سيبويه : حقتها للغضب لأنّه فسر قولهم : لا جرم أنّه سيفعل على معنى حق أنّه يفعل ولا عنده زائدة إلاّ أنها ألزمت جرم لأنّها كالمثل.[29]

وقد ردّ الفراء ما ذهب إليه الخليل وسيبويه فقال : وليس قول من قال : إن جرمت كقولك حققت أو حققت بشيء وإنما لبس عليه قول الشاعر:

جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

فرفعوا فزارة وقالوا : نجعل الفعل لفزارة كأنها بمنزلة حق لها أو حق لها أن تغضب قال : وفزارة منصوب في البيت المعنى : جرمتهم الطعنة الغضب أي : كسبتهم .[30]

---

28 ـ الكتاب ، سيبويه ، 138/3

29 ـ النحو الكتب التفسير ، د/ إبراهيم عبد الله رفيدة ، 1187/2

30 ـ معاني القرآن ، الفراء ،

وقال غير الفراء : حقيقة معنى لا جرم أن لا نفي هاهنا لما ظنوا أنه ينفعهم فرد ذلك عليهم فقيل : لا ينفعهم ذلك ثم ابتدأ فقال : **(جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ**(22))هود/ أي كسب ذلك العمل لهم الخسران وكذلك قوله عز وجل: **(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ(62)) النحل/** المعنى : لا ينفعهم ذلك ثم ابتدأ فقال : جرم إفكهم وكذبهم لهم عذاب النار أي كسب عذابها.

قال الأزهري: وهذا من أبين ما قيل فيه الجوهري قال الفراء : لا جرم كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقا فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ألا تراهم يقولون لا جرم لآتينك قال وليس قول من قال جرمت حققت بشيء وإنما لبس عليه الشاعر أبو أسماء بقوله : "جرمت فزارة".

وقال أبو عبيدة : أحقت عليهم الغضب أي أحقت الطعنة فزارة أن يغضبوا وحقت أيضا من قولهم لا جرم لأفعلن كذا أي : حقا.

قال ابن بري : وهذا القول رد على سيبويه والخليل لأنهما قداره "أحقت فزارة الغضب" أي :

بالغضب فأسقط الباء قال: وفي قول الفراء لا يحتاج إلى إسقاط حرف الجر فيه لأن تقديره عنده كسبت فزارة الغضب عليك.[31]

---

31 ـ لسان العرب ، ابن منظور ، 94/12 والبيت لأبي أسماء بن الضريبة ويقال لعطية بن عفيف وصوابه ولقد طعنت أبا عيينة بفتح التاء لأنه يخاطب كرزا العقيلي ويرثيه وقبل البيت :

يا كرز إنك قد قتلت بفارس بطل إذا هاب الكماة وجبوا

وكان كرز قد طعن أبا عيينة وهو حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري

ولما تعرضوا إلى قوله تعالى : **(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)** المائدة/2 احتج جميعهم ببيت الشاعر:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة (جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

فتأول ذلك كل فريق منهم على المعنى الذي تأوله من القرآن :

(أ) ـ وقال بعضهم : **(لَا يَجْرِمَنَّكُمْ)** لا يحقن لكم معنى قول الشاعر : جرمت فزارة أحقت الطعنة لفزارة الغضب .

(ب) ـ وقال آخرون : معناه لا يحملنكم معناه في البيت "جرمت فزارة" أن يغضبوا حملت فزارة على أن يغضبوا .

(ج)ـ قال آخر من الكوفيين : معنى قوله **(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)** المائدة/2 لا يكسبنكم شنآن قوم وتأويل قائل هذا القول قول الشاعر في البيت :

"جرمت فزارة" أي : كسبت فزارة أن يغضبوا وقال : وسمعت العرب تقول فلان جريمة أهله بمعنى كاسبهم وخرج يجرمهم يكسبهم .

وهذه الأقوال التي حكاها الطبري متقاربة المعنى وذلك أن من حمل رجلا على بغض رجل فقد أكسبه بغضه ومن أكسبه بغضه فقد أحقه له.[32]

أما (أن) فقال ابن أبي طالب مكي في قوله تعالى : **(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمْ النَّارَ)** أن في موضع رفع بجرم بمعنى وجب ذلك لهم .

32 ـ تفسير الطبري ، 6/63-64

وقيل : هي في موضع نصب بمعنى كسبهم أن لهم النار وأصل معنى جرم كسب ومنه المجرمون أي الكاسبون الذنوب.[33]

د- تفسيره اللغوي لبعض الآيات :

1- (فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) الشورى / أي الجبال واحدها علم وقال الخليل بن أحمد : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم.[34]

2- وقوله تعالى **(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(182))الأعراف** / قال الخليل بن أحمد سنطوي أعمارهم في اغترار منهم.[35]

3- قال النضر بن شميل : سألت الخليل بن أحمد عن قوله تعالى **(يَأْتِينَكَ سَعْيًا)**البقرة/ هل يقال الطائر إذا طار سعى ؟ فقال : لا قلت فما معناه قال معناه يأتينك وأنت تسعى سعيا وهو من التكلف الغير المحتاج إليه بمكان وإنما اقتصر سبحانه على حكاية أوامره جل شأنه من غير تعرض لامتثال خليله عليه الصلاة والسلام ولا لما ترتب عليه من آثار قدرته التي علمت النزر منها للإيذان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلا.[36]

33- مشكل إعراب القرآن ، ابن أبي طالب مكي ، 412/1

34- تفسير البغوي ، 128/4

35- زاد المسير ، ابن الجوزي ، 294/3

36- روح المعاني ، الألوسي ، 30/3

4 - وفي قوله : **(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ)**آل عمران/ قال الخليل : يقال : محص الحبل يمحص محصا إذا انقطع وبره ومنه : "اللهم محص عنا ذنوبنا أي خلصنا من عقوبتها وقال أبو إسحاق الزجاج : قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل التمحيص التخليص يقال : محصه يمحصه محصا إذا خلصه فالمعنى عليه ليبتلي المؤمنين ليثبتهم ويخلصهم من ذنوبهم ويمحق الكافرين أي : يستأصلهم بالهلاك.[37]

5- وفي قوله تعالى : **(مِنْ الصَّوَاعِقِ)** قال الخليل : هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه.[38]

6- وفي قوله تعالى : **(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ)**آل عمران/ قال الخليل وسيبويه : هي (أي) دخلت عليها كاف التشبيه وبنيت معها فصار في الكلام معنى (كم) وصورت في المصحف نونا لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغير لفظها لتغير معناها ثم كثر استعمالها فتلعبت بها العرب وتصرفت فيها بالقلب والحذف فحصل فيها لغات أربع قرئ بها.[39]

37- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 220/4

38- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 219/1

39- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 228/4 وقد قرئ بها :

أ - قرأ ابن كثير وكائن مثل وكاعن على وزن فاعل وأصله كيء فقلبت الياء ألفا كما قلبت في ييأس فقيل ياءس قال الشاعر :

وكائنْ بالأباطح من صديق * يراني لو أُصِبْتُ هو المُصابا

7ـ وروى ابن شميل عن الخليل بن أحمد أنه قال : كل شيء في القرآن (كلا) رد يرد شيئا ويثبت آخر.[40]

تعليق : قال ابن الأنباري (كلا) : هي عند الفراء تكون صلة لا يوقف عليها وتكون حرف رد بمنزلة نعم ولا في الاكتفاء فإذا جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها كقولك: كلا ورب الكعبة لا تقف على (كلا) لأنها بمنزلة إي والله قال الله تعالى : **(كلا والقمر)** الوقف على كلا الردع والزجر : وهو مذهب سيبويه وإليه ذهب الزجاج في جميع القرآن.

وقال آخر :

وكائِنْ رددنا عنكم من مدجَّج * يجيء أمام الركب يردي مُقَنَّعا

وقال آخر :

وكائِنْ في المَعَاشِرِ من أُنَاس * أخوهم فَوْقَهم وَهُمُ كِرَامُ

ب ـ وقرأ ابن محيصن وكئن مهموزا مقصورا مثل وكعن وهو من كائن حذفت ألفه وعنه أيضا وكأين مثل وكعين وهو مقلوب كيء المخفف

ج ـ وقرأ الباقون كأين بالتشديد مثل كعين وهو الأصل قال الشاعر :

كَأَيِّنْ من أُنَاس لم يزالوا * أخوهم فوقهم وهم كرام

وقال آخر :

كأيِّنْ أَبَدْنا من عدو بعزنا * وكائِنْ أجرنا من ضعيف وخائف

فجمع بين لغتين (كأين وكائن) ولغة خامسة كيئن مثل : (كَيْعِنْ) وكأنه مخفف من كَيِّءْ مقلوب كأيِّنْ .

ولم يذكر الجوهري غير لغتين : كائن مثل كاعن وكأين مثل كعين تقول كأين رجلا لقيت بنصب ما بعد كأين على التمييز وتقول أيضا كأين من رجل لقيت وإدخال من بعد كأين أكثر من النصب بها وأجود وبكأين تبيع هذا الثوب أي بكم تبيع قال ذو الرمة :

وكائِنْ ذَعَرْنَا مِنْ مَهَاةٍ وَرَامِحٍ * بِلادُ الْعِدَا لَيْسَتْ لَهُ بِبِلاد

40 ـ لسان العرب ، ابن منظور ، 231/15

وقال أبو حاتم السجستاني : جاءت كلا في القرآن على وجهين فهي في موضع بمعنى لا وهو رد للأول كما قال العجاج :

قد طلبت شيبان أن تصاكموا * كـلا ولمـا تصطفق مآتم

وتجيء كلا بمعنى (ألا) التي للتنبيه كقوله تعالى : **(أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ)** وهي زائدة لو لم تأت كان الكلام تاما مفهوما وقال : ومنه المثل : "كلا زعمت العير لا تقاتل" وقال الأعشى :

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم * إنا لأمثالكم يا قومنا قتل

وهذا غلط معنى كلا في البيت وفي المثل : لا ليس الأمر على ما تقولون .

قال أبو العباس المبرد : لا يوقف على كلا في جميع القرآن لأنها جواب والفائدة تقع فيما بعدها قال : واحتج السجستاني في أن كلا بمعنى ألا بقوله تعالى: **(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى(6))** العلق /.[41]

قال الخليل بن أحمد : سمعنا كلمة شنعاء لا تجوز في التأليف سئل أعرابي عن ناقته فقال : تركتها ترعى العهعخ . قال : وسألنا الثقات من علمائهم فأنكروا أن يكون هذا الاسم من كلام العرب قال : وقال الفذ منهم : هي شجرة يتداوى بها وبورقها قال : وقال أعرابي آخر : إنما هو الخعخع قال الليث : وهذا موافق لقياس العربية والتأليف.[42]

41 ـ لسان العرب ، ابن الأنباري ، 231/15

42 ـ لسان العرب ، 40/3

مفاهيم لسانية : ـ روى ابن شميل عن الخليل أنه قال : المحال الكلام لغير شيء والمستقيم كلام لشيء والغلط كلام لشيء لم ترده واللغو كلام لشيء ليس من شأنك والكذب كلام لشيء تغر به.[43]

علم الأصوات : أما الصوتيات فقد شهد له العلماء أنّه أول من وضع أصول هذا العلم وكان الداعي إلى الاعتناء بهذا العلم الأداء القرائي ثم استقل بعد ذلك كعلم قائم برأسه.[44] ونثبت ها هنا رأيه في أصوات بعض الحروف.

1ـ صوت الهمزة : قال الخليل : الهمزة صوت مهتوت في أقصى الحلق يصير همزة فإذا رفه عن الهمز كان نفسا يحول إلى مخرج الهاء فلذلك استخفت العرب إدخال الهاء على الألف المقطوعة نحو أراق وهراق وأيهات وهيهات وأشباه ذلك كثير .

قال سيبويه : من الحروف المهتوت وهو الهاء وذلك لما فيها من الضعف والخفاء. ومنها قولهم : فهتها في البطحاء أي صبها على الأرض حتى سمع لها هتيت أي صوت ورجل هتات ومهت وهتهات خفيف كثير الكلام وهت القرآن هتا أي : سرده سردا والسحابة تهت المطر إذا تابعت صبه . قال ذو الرمة :

سقيا مجللة ينهل ريقها من * باكر مرثعن الودق مهتوت [45]

43 ـ لسان العرب ، 186/11

44 ـ التطور النحوي للغة العربية ، برجشتراسر ، ص: 11 (بتصرف في الأسلوب)

45 ـ لسان العرب ، 103/2

2 ـ الحروف اللينة : قال الخليل : إذا جاءت الحروف اللينة في كلمة نحو لو وأشباهها ثقلت لأن الحرف اللين خوار أجوف لا بد له من حشو يقوى به إذا جعل اسما .

وقال : والحروف الصحاح القوية مستغنية بجروسها لا تحتاج إلى حشو فتترك على حالها والذي حكاه الجوهري في حكاية أبي الدقيش عن الخليل قال : قلت لأبي الدقيش : هل لك في ثريدة كأن ودكها عيون الضياون ؟ فقال : أشد الهل .

3ـ قال الخليل بن أحمد : الهاء والحاء لا تأتلفان في كلمة واحدة أصلية الحروف لقرب مخرجيهما في الحلق ولكنهما يجتمعان من كلمتين لكل واحدة منهما معنى على حدة كقول لبيد

يتمارى في الذي قلت له * ولقد يسمع قولي حيهل[46]

4ـ تِهَامَة بلد والنسب إليه تِهَامِي وتهامٍ على غير قياس كأنهم بنوا الاسم على تهمي أو تهمي ثم عوضوا الألف قبل الطرف من إحدى الياءين اللاحقتين بعدها .

قال ابن جني : وهذا يدلك على أن الشيئين إذا اكتنفا الشيء من ناحيته تقاربت حالاهما وحالاه بهما ولأجله وبسببه ما ذهب قوم إلى أن حركة الحرف تحدث قبله وآخرون إلى أنها تحدث بعده وآخرون إلى أنها تحدث معه قال أبو علي : وذلك لغموض الأمر وشدة القرب وكذلك القول في شآم ويمان.

---

46 ـ معجم العين ، الخليل بن أحمد ، 5/3

قال ابن سيده : فإن قلت : فإن في تهامة ألفا فلم ذهبت في تهام إلى أن الألف عوض من إحدى ياءي الإضافة قيل : قال الخليل في هذا : إنهم كأنهم نسبوا إلى فعل أو فعل فكأنهم فكوا صيغة تهامة فأصاروها إلى تهم أو تهم ثم أضافوا إليه فقالوا : تهام وإنما مثل الخليل بين فعل وفعل ولم يقطع بأحدهما

لأنه قد جاء هذا العمل في هذين جميعا وهما الشام واليمن.

قال ابن جني : وهذا الترخيم الذي أشرف عليه الخليل ظنا قد جاء به السماع نصا أنشد أحمد ابن يحيى :

أرقني الليلة ليل بالتهم * يا لك برقا من يشمه لا ينم

قال : فانظر إلى قوة تصور الخليل إلى أن هجم به الظن على اليقين ومن كسر التاء قال : تهامي هذا قول سيبويه.[47]

وأخيرا : لو استرسلنا في الحديث عن الخليل بن أحمد لا طال بنا المقام لأن الرجل هو اللغة وهو النحو وهو علم اللسان وهو علم الأصوات لم تنجب المرأة العربية عبقريا مثله ألَمَّ بكل أصناف العلوم فترك فيها أثره الواضح ولذا حسبنا ما قدمناه وعلى الله توكلنا فهو نعم المولى ونعم النصير .

47 ـ لسان العرب ، 72/12